وراء الباب المغلق

1

سارق الأرواح

عارف فكري

وراء الباب المغلق

سارق الأرواح

(1)

عارف فكري

لمتابعة بقية كتيبات هذه السلسلة المجانية،

وسلاسل أخرى جديدة إن شاء الله، يُرجى متابعتي

على:

قناتي على تيليجرام: الرابط

(1)

سألني المأذون:

-"هل أنتِ مصرة على الطلاق يا ابنتي؟".

أومأتُ برأسي. يجلس أمامي سامح بصمت، وفي عينيه لمحتُ نظرة من يقول: *ستندمين على فعلتك هذه*، ونظرتي التي تفيض بالاحتقار تقول له بوضوح: *أنا منْ سأندم؟!*

لكن ها أنا ذا في حجرتي أمسح الدموع التي لا تكف عن الانهمار، وكأن الفترة التي تلت الصدمة كانت أشبه بثقب أسود يمتص كل ما يحدث، ثم ها هي ذي الثمارُ الحنظليةُ الطعم تُؤتي أُكُلها!

الشيء الوحيد اللطيف الذي كسبته من طلاقي أنني عدت للإقامة مجددًا في منزل والديّ بسيدي بشر بالأسكندرية.

لم أحب القاهرة، وهي -على اتساعها وعراقتها- بدت لي أشبه بمكان ضيق خانق يضجُّ بثاني أكسيد الكربون!

لهذا حين عدت لموطني ذهبت للبحر، وانتقيت بقعة خالية، ثم نظرت حولي جيدًا حتى تأكدتُ أنني بمفردي، وحينها انفجرت في بكاء عنيف! بكاء بدأ ضعيفًا في البداية، وهو خير تطبيق لمقولة "أول الغيث قطرة"، ثم راح البكاء يشتد حتى خُيّل إليّ أن الفراغ نفسه يشهق معي، ويبكي بدموع غير مرئية!

بمرور الوقت رحت أهدأ.

قلت لنفسي أنني استنفذت حصتي من الدموع فلو كان الدمع عندي مُخزَّنًا في بئر لصارت جافة بعد مرور ثلاث ساعات ونصف تقريبًا من البكاء على الأقل!

حين عدت للمنزل شهقت أمي، وقطَّب أبي حاجبيه في ضيق مكتوم.

-"لِمَ أنتِ شاحبة يا فريدة؟".

بدا سؤالًا سخيفًا، لكن نظرة حازمة من أبي لأمي جعلتها تلتزم الصمت.

أتذكر ما حدث بصورة أوضح الآن.

كنت في زيارة اضطرارية لوالديّ، بعد شجار غاضب مع زوجي سامح، من ضمن الشجارات الكثيرة التي تحدث لأهون سبب!

قضيت عدة أيام عند والديّ، ثم وجدت أنه من الأفضل أن أعود، وخاصة أن عيد ميلاده قد اقترب.

كدت أخبره بقدومي، ثم خطر لي أن أجعلها مفاجأة له، بهدية جميلة في عيد ميلاده، الذي يوافق الثلاثين من ديسمبر. أنه عيد ميلاد والاحتفاء بسنة جديدة، وفضّ الشجار السخيف بيننا!

حسنًا، كانت مفاجأتي من نصيبه هو بالقطع، لكن مفاجأته لي كانت أشد وأقسى!

دسست المفتاح في الباب، محاذرة أن أصدر صوتًا، وعقلي يقول محذرًا أن البعض يموت من الصدمة، ويتوقف قلبه من الرعب، لكن بعد قليل قلت له ساخرة بأن قلبه قوي، ولا يشعر بالخوف أصلًا!

في البداية كان هناك ذلك الأنين!

حسبته يختنق، ويُصارع سكراتِ الموت، لكنه كان يصارع شيئًا آخر.

بمعنى أدق: كان زوجي عاريًا، ولم يكن بمفرده. توقف الزمن، وأنا أحدّق بذهول في خيانته!

لوهلة، شعرتُ بأنني أراقب الأمر من بعيد، كما لو كنتُ أجلس على الشاطئ باسترخاء، أرقب الحمقى الذين ينطلقون للماء؛ ليغمروا أجسادهم فيه. لم أكن

أعرف السباحة، وكنتُ أعتقد بأن هذا يدلّ على مقدار الحكمة الذي أملكه.

وقفتُ على الباب لدقيقة متجمدة، من الصقيع ربما، أو من الصدمة، أو ربما لم يُعط عقلي أمر التحرك بعد؛ إذ أن عضلاتي قد تيبست، وصار من المتعذر تحركها.

ربما كل هذه الأسباب مجتمعة، أو بعضها، لكن هل هذا يهم؟

الشيء الوحيد الذي تحرك هو يدي، مررتها على قلبي، ذلك الألم الخانق الذي أتاني لأول مرة منذ أشهر يعود مجددًا.

لكَمْ تمنيتُ لو ظهر أحدهم من الفراغ، وغرس خنجره فيه، وأراحني منه!

تحركتُ أخيرًا، وصوت زوجي يناديني؛ فسيكون من الصعب أن يلاحقني بجسده العاري، وخزيه الذي يغطيه مع عرقه:

-"فريدة! فريدة!".

خطر لي أنه يخجل مني الآن أكثر من خجله من عشيقته!

بدا لي المنطق معكوسًا، غير منطقي، وبينما كنتُ أتساءل عن دموعي لماذا لم تنهمر الآن بهذه الغزارة، كان صوت زوجي المزعج المليء بالندم يحرك ذرات الهواء في الصالة بعد أن دخلتُ المطبخ، ووجدتُ نفسي -تلقائيًا- أقوم بعمل قدح من القهوة!

أضع البرّاد الصغير على النار، أصبُّ بعض الماء فيه، أضع بعض القهوة من البرطمان الصغير، ثم أتراجع للخلف، يلامس ظهري الجدار البارد.

ودموعي ما زالت تنهمر!

قدح من القهوة سيكون مناسبًا جدًا. مراقبة النار تحت البرّاد تبدو هواية مناسبة جدًا الآن، طبعًا أسمع ضجيج انصراف العشيقة، اضطراب زوجي، نداؤه المستمر عليَّ.

كان هذا في حدود خمس دقائق تقريبًا. في الدقيقة السادسة، كان يقف على الباب لاهثًا، ومنه تفوح رائحة الخيانة التي بدتْ لي منفرة.

الحقيقة أنها كانت مقززة جدًا، وبشكل ما غريب بدأت معدتي تتقلب، في النهاية كنتُ أُفرغ ما في جوفي.

قال بقلق بدا لي مفتعلًا:

-"ألف سلامة عليكِ، هل أكلتِ شيئًا فاسدًا؟".

رمقته بغيظ مستعر. وددتُ لو أمسكتُ بوجهه الوسيم ودفنته في عين البوتاجاز!

النار هي الوحيدة القادرة على تطهيره من خطيئته، لكنني لم أتكلم.

اكتفيتُ فقط بأن أمارس هذا الفعل في مخيلتي مرارًا وتكرارًا، ثم غسلتُ وجهي، ووجدته يقفز إلى منشفة نظيفة مدلاة بجوار الباب يناولني إياها.

أخذتها منه بغلظة، ورحتُ أنشف وجهي، ثم علقتها في مكانها.

أصبُّ قهوتي، وأنا أجلس إلى المنضدة الرخامية، أرتشفها بهدوء، وأنا أركز بصري عليه، والحق أن منظره وهو يقف كطائر اللقلق يسعدني!

أي كلمات سأنطق بها، أي ردود فعل غاضبة، لن تكون كافية!

ستحرق أعصابي بدون جدوى، لكن أن أتركه هكذا ينتظر رد فعل مناسب لما فعله؛ فهذا هو الجحيم بعينه!

الحق أنني لا أعرف كيف فعلتُ هذا؛ فقد كنتُ مرتبكة، وعقلي لم يصل لنتيجة حاسمة؛ لم يحلل ما رآه، لم يقنن ما حدث، لم يصل لنتيجة لكي ينتهي المطاف بهذه الغريبة في فراشي!

لكن هل هي غريبة حقًّا؟

أخرجتُ من حقيبتي -بعد أن اقتربتُ من إنهاء قهوتي- هدية ملفوفة بورق سوليفان. وضعتها أمامي بهدوء. قلتُ دون أن أنظر إليه:

-"أعتذر عن عدم اتصالي بك قبل حضوري كعادتي، ولكني كنتُ أرغب في عمل مفاجأة لك. اليوم عيد ميلادك. كل سنة وأنت طيب. هذه هديتك".

كان تخيلي بأن تصرفي الراقي يقتله، يسحقه من الداخل، لكن الحق أني وددت لو تحررت من كل شيء يخصّ التحضر، ومزقته بأسناني!

مجرد تخيل هذا أشعرني ببعض الراحة!

قلت بذات الهدوء المصطنع:

-"أرجو أن تصل ورقة طلاقي إليّ حيث سأقيم في منزل والديّ".

ثم غادرتُ المنزل الذي شهد سبع سنوات من زواجنا.

***

(2)

هل يمكن لأحد أن يصف الألم، يضعه في وصفٍ شاملٍ جامعٍ؟

أشكّ في ذلك، فعلى على كثرة الروايات الكئيبة التي قرأتها، وعلى اختلاف القصص المؤلمة التي سمعتها من صديقاتي، يظل كل ألم متفردًا، وكأنه مثل بصمة اليد يصعب تكراره أو استنساخه!

نعم قد يتشابه ألم مع آخر، لكن هل يكون هو نفس الألم؟

لا أظن ذلك.

كانت ثورة أبي عارمة.

-"ماذا فعل هذا الحيوان معكِ؟".

لم أخبره، فقط انخرطتُ في بكاء عنيف؛ مما جعل الأب الغاضب يتأكد بأن كارثة ما قد فعلها ذلك الأحمق!

هذا ليس خلافًا عائليًا بسيطًا يمكن تجاوزه أو التحدث عنه بسهولة.

نعم، هو يعلم أن العام الأخير في حياتي العائلية مع زوجي لم يكن مثاليًا، بسبب تأخر الإنجاب بسبب خطأ ما فيَّ أنا، وهو ما جعلني أشعر بالانكسار، وبكائي المستمر ليلًا.

لم تعد الأمور كما كانت.

يقول عقلي وهو يهز كتفيه: *لكن منذ متى تكون حياة المتزوجين خالية من هذه الأشياء؟*

فأجيبه بضيق: *إنه أمرٌ مختلف.*

حاول أبي الاتصال به؛ فلم يجد هاتفه متاحًا.

إنه في الظلمة؛ فلا أنا أتحدث عما جرى، ولا زوجي الوغد موجود على الساحة حتى يفسر ما حدث!

يطرق والدي باب حجرتي كل صباح؛ فيجدني متكورة في فراشي في ذلك الوضع الجنيني، وأنا ألف ملاءة السرير حول جسدي، وكأنني أبتغي دفئًا غير موجود في هذا العالم!

يسألني عن حالي؛ فأرد بصوت منكسر محبط، مختنق من كثرة البكاء:

-"أنا بخير".

لكنه يعلم أنني لستُ بخير، فكل شيء يقول أني لست كذلك.

وذات يوم مشمس كان سامح يقف على الباب، مرتديًا أجمل ما لديه، وهو يقف بوقار.

فور أن رأى أبي أدرك أي غضب يشعر به، وقد اتضح هذا أكثر في عِرّق بجبينه راح ينتفخ وينبض!

خطر لي أن سامح يفكر في تلك اللحظة أن هذا ليس غضب من عرف الحقيقة، لكنه غضب أب مكلوم على ابنته ليس إلا.

هذا يعني أني لم أخبره بما حدث فعلا، وهذا يجعله يطمئن أكثر.

جلست قبالته، وهو يعتذر لأبي عن عدم ردّه عليه؛ فقد انشغل بصفقة هامة جلبت له عشرات الألوف، وطبعًا كانت كلمات أبي تعبّر عن انبهاره، بينما أمي تدعو له بكثرة الرزق وبركته. في هذه الأثناء كنتُ أسأل نفسي بدهشة:*"كيف أحببتُ هذا الرجل؟"*.

هذا سؤال محير بحق، فعندما تتساقط طبقة الطلاء المبهرة من على القناع، وتبدأ العيوب والنقائص في الظهور، لكن سحر الحب يكمن في قدرته دومًا على خلق طبقات طلاء جديدة، توضع يوميًا على الوجوه من أجل الاستمرار!

هل هي رغبتي في أن أقنع نفسي بأنني وجدتُ من أبحث عنه أخيرًا، أم الهروب من شبح الفشل، وكراهية أن أوصم بأنني لم أكن على قدر المسؤولية؟

لا أعرف.

ما أعرفه أنني جلستُ صامتة دون أن أنطق بكلمة، فمنظر زوجي وهو عارٍ مع تلك الساقطة، لا يفارق خيالي!

رائحة عرقه وخجله تعمل كأفضل مزيل لكل الطبقات التي يحاول هذا الحقير وضعها على وجهه، ووالداي يسقطان في دوامته بدون جهد!

الآن ألوم نفسي لعدم إخبارهما. على الأقل حتى أُريح نفسي من رؤيته، ومن سماع هذا الهُراء!

ما يضايقني حقًّا أنني لا أرى ندمًا حقيقيًا في عينيه.

الأحمق يظن أن لأبويّ حلاوة لسانه، ولي الكثير من الاعتذارات، وبالنسبة إليّ؛ فلا فرق هنالك، فلا أريد ندمًا أو خجلًا؛ فلن أرجع إليه.

تثب أم كلثوم بصوتها إلى ذهني، وهي تغني قصيدتها المشهورة: "قصة الأمس"، حيث تقول: *أنا لن أعود إليك.*

نعم، لن أعود.

انتبهتُ فجأة أن الصمت قد حلّ، وأن النظرات موجهة إليّ الآن، وكأن عليّ أن أتخذ قرارًا بالعودة، بعد أن قام زوجي بالواجب. وجدتُ نفسي أقول تلقائيًا، وبدون تفكير:

-"أرجو ألا تتأخر في إرسال ورقة الطلاق يا أستاذ. لقد مضى أسبوعان الآن، وإلا سأضطر للتحدث بما حدث، وهو أمر لن يروق لك بأي حالٍ من الأحوال".

ساد سكوت غير مريح. سامح يبتلع ريقه؛ مما جعل الأب يدرك أن الأمر يتعدى حاجز الخلاف البسيط.

خلا بي في حجرتي، وطلب مني أن أصارحه.

بعد إلحاح أخبرته بما رأيت؛ فأرغى وأزبد، ثم قال:

-"ألا توجد فرصة لأن تسامحيه؟ الرجال يخطئون دومًا".

هززتُ رأسي قائلة:

-"ليس هذا الخطأ يا أبي".

قال بتؤدة:

-"المجتمع قاس مع لقب 'مطلقة' يا بنيتي. لن يرحمكِ لو صرتِ تحملينه".

قلت:

-"فليذهب المجتمع للجحيم!".

كأنه لم يسمع:

-"أنتِ في أواخر الثلاثينات، وفي مجتمعنا هذا ليس محببًا كثيرًا لفتاة لم تتزوج؛ فما بالكِ بمطلقة!".

قلتُ بإصرار:

-"لا يهمني. هل تتخيل أنني قادرة فعلًا على التظاهر بأن شيئًا لم يحدث، أُكمل حياتي مع هذا الخنزير، وأبتسم بتكلف؟ هل تعتقد أنني سأنسى شيئًا رأيته بعينيّ رأسي؟ أشك يا أبي".

تنهد والدي، ثم تحدث عن الشيطان الذي ينشر الخراب في البيوت، عن الغضب الذي يجب أن يُترك حتى تهدأ ناره، وتستحيل بردًا وسلامًا!

أعرف أنه يفعل هذا من أجل مصلحتي، لكنني وددتُ لو أنه غضب من أجلي، وقام بتحطيم رأس زوجي!

غادر للصالة، وبرفق-أثار غيظي-أخبره بأنه لا مجال للعودة.

بعد يومين أتت ورقتي، وصرتُ أحمل لقب "مطلقة" رسميًا!

***

(3)

كيف تنتهي حياة كهذه بورقة؟

بكيتُ كثيرًا حتى جفت مقلتاي، وتحولت عيناي لكرتين من اللون الأحمر القبيح!

زاد وزني، ربما أكثر من عشرة كيلوجرامات، وصارت جلستي المفضلة النظر من النافذة للشارع محدقة في المارة، بينما أنا في الأصل أحدّق إلى الفراغ!

أفكاري، خواطري التي لا تتوقف أبدًا؛ كانت السبب في أن أُصاب بصداع فتّاك، لم تفلح المُسكِّنات في محوه.

وفي النوم تبدأ الكوابيس في سحقي، وكمْ من ليلةٍ دخل والدي إلى حجرتي؛ لأنه سمع صراخي، وأنا ألوح بيديّ، بينما عيناي مغلقتان، وكأنني أقاتل في معركة رهيبة لا قِبل لي بها!

كانت أمنيتي أن يحدث شيء ما يلهيني عن مصيبتي، عن ذلك الألم الذي يحفر بدأبٍ في أعمق أعماق قلبي.

لكن لا شيء يحدث في الواقع، الحياة كما هي؛ رتيبة مملة متوقعة، وبرغم احتقاري لزوجي، لكنني لا زلتُ أحبه، وكنتُ أدخل حساباته على الفيس وتويتر وانستجرام أرقبه عن كثبٍ، حيث كنتُ أتمنى أن أجد بعضًا من الندم يتبدى ولو في منشور بسيط، أو صورة يظهر فيها حزنه العارم على فراقي.

كنتُ أريد دليلًا أنني كنت أصنع فارقًا معه، وأنني مهمة بدرجةٍ ما، مثلما هو مهم جدًا بالنسبة لي، لكن خاب رجائي.

وعندما رأيتُ صورته-كان هذا بعد أسبوعين من الطلاق تقريبًا-مع هذه الفاتنة الشقراء، على شاطئ البحر، جنّ جنوني، ورحتُ أُحطم الأشياء بشراسة مجنونة، حتى أنني جرحتُ يديّ، وكسرتُ شاشة اللاب المقرب من قلبي في غمرة غضبي!

ثم انهرتُ على الأرض في بكاء عنيف، لم تفلح تهدئة والديّ في محوه.

قلتُ من بين دموعي:

-"أنا بائسة يا أبي. بائسة وتعيسة، وأتنفس من ثقب إبرة!".

قالت أمي فيما معناه "أنها ستزوجني من أسياد أسياده"؛ فرمقتها بنظرة خاوية ولم أعقب. أتى الليل، وأتتْ معه الوحدة، وكلما كان جفناي يتثاقلان كنتُ أهبّ مفزوعة، خوفًا من عالم الكوابيس الذي ينتظرني بلهفة!

ظللتُ هكذا حتى الصباح، أتقلب على فراشي، محاذرة أن أسقط في الفخ، وحينما كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا، كان وجهي قد صار منتفخًا، الحمرة تملأ عينيّ، اللتين فقدتا جمالهما منذ الطلاق.

في العاشرة والنصف أتت صديقتي سناء.

فتاة في أواخر العشرينات، أنيقة، تنضح روحها الرائقة من وجهها.

سمعت أمي من حجرتي تقول بحبور:

-"لقد أتيتِ في وقتك يا سناء".

قالتها أمي بلهفة جعلت سناء تقول بتوجس:

-"ما الأمر يا طنط؟ هل حدث شيء؟".

قالت:

-"ستعرفين كل شيء من فريدة. ستفرح جدًا عندما تراكِ".

دخلت سناء حجرتي؛ فوجدتني أحدق -كعادتي-في الفراغ. عندما وقع بصري عليها تغيّر كل هذا.

كان هناك حضن بين صديقتين مقربتين منذ الطفولة، ثم أتبعه سيل من الدموع، وأنا أحكي لها ما حدث.

في العادة لم تكن سناء تسبُّ أو تشتم، لكن سيلًا من الشتائم انهمر من فمها، وكأنما هذا القاموس كان موجودًا لحين الحاجة إليه، وهذا أسعدني كثيرًا، على الأقل كنتُ أتمنى أن يحدث هذا من أبويّ، لكن سناء أثلجتْ صدري بذلك التصرف.

وضعتُ رأسي بين يديّ، وقلتُ بيأس:

-"ماذا أفعل؟".

قالت:

- "في أي شيء يا حمقاء؟ هل هي نهاية العالم؟".

أشرتُ إلى صدري:

- "هناك ثقب بشع في قلبي، ولا أعرف كيف أرتقه أو حتى أملأه. لكم أحببت ألا يكون لي قلب أصلًا!".

ربتت على كتفي وهي تقول:

-"خذي من السيدة وردة مرشدة لكِ".

قلت بدهشة:

-"السيدة وردة؟".

لكزتني في كتفي:

-"المطربة وردة يا فريدة. لقد وضعتْ وصفة لما تعانين منه الآن".

ابتسمتُ على الرغم مني. لا بد أن سناء تمزح. تحاول أن تخرجني مما أنا فيه من حزن غامر يخنق روحي. سألتها وأنا أجاريها:

-"وماذا كانت وصفة المرحومة؟".

لوحتْ سناء بأصابعها في الهواء، وقالت:

-"داوي الهوى بدواه".

قلت بإحباط:

-"آه. تذكرتُ هذه الأغنية".

واصلت سناء وكأنها لم تنتبه لإحباطي هذا:

-"أحبِّي غيره، أخرجي نفسكِ من هذه الحفرة اللعينة".

قلتُ وأنا أتحسس جسدي:

-"انتظري إذن".

رمقتني سناء بنظرة نارية وهي تقول بلوم:

-"ماذا تفعلين؟".

قلتُ بغيظ:

-"أبحث عن ذلك الزر السحري الذي سأضغطه؛ فيحدث هذا الشيء الذي تقولين عليه!".

ثم ضربتها بالوسادة برفق، وأنا أدمدم:

-"ما أسهل النصيحة، وما أصعب الفعل!".

تمتمت سناء باستسلام:

-"ماذا نفعل إذن؟ على الأقل حاولي أن يحدث ذلك".

قلت:

"أنتِ لم تحبي من قبل يا سناء".

قالت وهي تهز رأسها بفخر:

-"أعرف أني محظوظة".

قلت:

-"الحب أشبه بروح إنسان آخر تمتزج بروحك، إنه يتخلل كل مساميكِ، بحيث يصير تنفس الأكسجين نفسه بدونه عملية صعبة جدًا".

هزت سناء كتفيها قائلة:

-"الحب نوع من الإدمان ليس إلا. إما أن تُغيّري الصنف، أو أن تقاسي الأمرّينِ حتى تُشفي".

ضحكتُ بمرارة:

-"لم تعد فيَّ رغبة أو صحة لفعل هذا أو ذاك".

قالت سناء بعد لحظة من التفكير:

-"أنتِ جميلة وفي ريعان شبابكِ؛ لا بد أنه يوجد من يحوم حولكِ".

قلت:

-"توقفي عن قول هذا الهُراء. أنا محطمة. مشوهة نفسيًا يا سناء، لا أصلح إلا للموت!".

قالت:

-"بعد الشرّ عليكِ. أنتِ من يجب أن تتوقفي عن الشعور بذلك".

قلت:

-"أخبرتك بأنه لا يوجد زرّ لذلك. لو تعرفين أحدًا يقدر على ذلك؛ سأكون شاكرة. غير ذلك؛ فلتخرسي. أنتِ تزيدين من الأمر سوءًا عندي".

همست سناء في أذني:

-"لا تفقدي الأمل".

نظرتُ إليها بعينين خاويتين. أي أملٍ تتحدث عنه؟

ابتسمت سناء بخبث:

-"لكنكِ لم تجيبي سؤالي. هل هناك من يحوم حولك؟".

قلت بسخرية:

-"يوجد، لكنه غير مناسب بالمرة. يمكنكِ القول أنه معجب صامت منذ سنوات".

اشتعلت عيناها فضولًا وهي تقول:

-"منْ؟".

الحقيقة لم أكن مهتمة بأن أحكي لها عن نديم برهان، جاري الذي يقيم في الطابق الذي يعلونا.

منذ متى يقيم في العمارة؟

كان هذا منذ عشر سنوات تقريبًا، أي قبل زواجي بثلاث سنوات، متوسط القامة، تميل مقدمة رأسه للصلع، ويرتدي نظارة طبية، ولا يهتم بهندامه، ولا يكف عن حكّ ذقنه كلما فكّر في شيء، مما يدل على شخصيته المفكرة إلى حد كبير!

كان يتطلع إليَّ بإعجاب (أو هكذا أتصور) كلما جمعتنا مناسبة ما، وما أكثر المناسبات التي تجمع سكان عمارة واحدة، لكنه-والحق يقال-لم يتجاوز

حدوده قط، وكانت على شفتيه ابتسامة هادئة، وخيل إليَّ كثيرًا أنه نموذج فريد للرجل الممل!

عندما أتى الليل وأتت معه الوحدة كالعادة (برغم أني أقيم مع والديَّ)، أتت معه أيضًا كل الهواجس المخيفة التي تمزقني من الداخل إلى أشلاء!

كانت الرياح شديدة في تلك الليلة. النعاس يجافيني، والظلام يتسرب لروحي بخبث، ولم أجد أمامي سوى أن أضمُّ الروب إلى كتفيّ، وأجلس إلى النافذة، أراقب الشارع الصامت؛ إذ أنه لا يوجد مجنون حتى يسير فيه حينذاك.

أقول لنفسي: هل كان المفترض أن أصبر وأن أعالج الأمر بحكمة، لكن قلبي المُحطَّم حتى آخره يصرخ فيّ بأن زمن الحكمة قد ولّى، وأنني ما زلت أحبه ببساطة، وكنت أعرف أنه على حق، بالفعل أنا أحبه، بالرغم من رؤيتي له رأي العين وهو يخونني وفي فراشي!

أتذكر تلك اللحظات العصيبة مجددًا، وكأني أركب آلة زمن وهمية تعود بي مرارًا وتكرارًا لذات الحدث المخيف، حيث أراه يلملم الملاءة حول جسده بعصبية وأثر المفاجأة على وجهه، وبجواره تلك الساقطة تفعل المثل!

جمود وجهي، وتصرفي ببرود ظاهري، ثم حين غادرت الشقة رحت أركض على السلم والدموع تحرق عينيّ، حتى كادت قدماي تلتويان تحتي من شدة اضطرابي، وهواء الشارع البارد يضرب وجهي، دون تأثير حقيقي على قلبي الذي يحترق في بركان من الحمم!

مشاهد تومض في ذهني وتسبب ألمًا كاسحًا بأعماقي كلما استدعيتها، أو فرضتْ نفسها عليّ بالقوة.

والزمن نفسه -ذلك المقيم بداخلنا مهما أقمنا في الحياة-يتغير ويتبدل ويختلط، ويشعرني بارتباك، فلكم أودّ لو أنه يمرّ سريعًا، لكن لا، بل تومض تلك المشاهد الصغيرة الملفوفة في عقد من نار، وتأخذ راحتها في كيّ جروحي!

تقول جيهان -صديقتي الأخرى- بأن الذكريات تقوم بعمل النار الفعلية في كيّ الجروح، أو الكحول في تطهير ثقوب الرصاص، لكني أخالفها في ذلك.

يمكنني أن أقول لها بأنها حلقة زمنية مكررة ومغلقة بذهني، تبدو لي بأنها بلا نهاية!

فكرة أن ذلك الألم الشنيع سيستمر بداخلي حتى الممات تجعلني أنتفض رعبًا، لكن جيهان تطمئنني:

-"دعي الزمن يعالج جروحك. كل من انكسر قلبه يتخيل أن الحياة قد انتهت، لكن بعد ذلك يحدث النسيان وتشرق شمس الحب بداخلك من جديد".

أحملق فيها بسخرية وهي تقول هذه الكلمات الحالمة مغمضة عينيها في هيام.

الحمقاء لم تجرب هذا الألم من قبل، والجالس على الشاطئ عوَّام كما يقولون.

حين خُطبتْ جيهان دعتني بطبيعة الحال لحفل الخطوبة، وهكذا ركبت سيارتي المتهالكة للقاهرة التي صرت أكرهها.

هناك وفي غمار الحفل وجدته يقف يحدق إليَّ بعينين ثاقبتين!

ارتبكت وكاد كأس العصير أن ينسكب من يدي!

وليت وجهي ناحية جيهان التي كانت تتبادل حديثًا رومانسيًّا مع خطيبها، وقلت لها بعصبية وإن كان بصوت منخفض:

-"من الذي دعا هذا الحقير إلى هنا؟".

قالت بدهشة:

-"من؟".

أشرت بعصبية إليه، فقالت بخبث:

-"آه، سامح! أنا منْ دعوته طبعًا".

قلت بغيظ:

-"ولماذا؟".

تنهدت بصبر:

-"قلت ربما تعود المياه لمجاريها. يبدو أنك لم تنسي حبه للحظة واحدة".

قلت لها وأنا أصرُّ على أسناني:

-"وهل هذا يجعلك تدعينه إلى هنا؟ سيظن أنني لا أتحمل فراقه، برغم إصراري على الطلاق. ألا يكفيكِ ما حدث لكرامتي؟".

رفعت يديها:

-"كل الرجال يخطئون. لماذا لا تعطينه فرصة؟".

قلت لها بغضب مكتوم، وقد ذكرتني بكلام مشابه قاله أبي من قبل:

-" لو قام خطيبك بخيانتك هل ستقبلين الاستمرار معه؟".

انتفضت وهي تقول باستنكار:

-"لو فعلها سأقتله بلا رحمة!".

قلت لها بضيق:

-"تقولين هذا وهو خطيبك فحسب، فما بالكِ لو صار زوجك؟".

بدا الضيق والخجل على وجهها. قالت بارتباك:

-"ليس من اللائق أن أقوم بطرده".

قلت لها بعد برهة:

-"جيد أنه هنا. سأقابله".

لمحت دهشة على وجهها، ثم ابتسامة خبيثة ماكرة تولد ببطء.

قلت على سبيل قتل هذه الابتسامة في مهدها:

-"لا تحلمي".

ثم تركتها وتوجهت إلى سامح. لا بد أن دهشة عارمة اجتاحته كالطوفان حين رآني أقترب منه، وأقول بهدوء:

-"كلمة من فضلك يا أستاذ سامح".

معظم المدعوين لم يكونوا يعرفون طبيعة الحال، لكن من يعرفونني بدت دهشة وصدمة على

وجوههم، وبينما أنتحي به ركنًا قصيًّا كنت أتخيل أن أمنيتهم الأولى أن تستطيل آذانهم كي يسمعوا ما يدور بيننا!

جلسنا وواجهنا بعضنا في صمت للحظات، ثم قلت بخشونة:

-"ماذا تريد؟".

أخذ نفسًا عميقًا وقال:

-"أريد أن تعودي".

كانت إجابة مباشرة صادمة بالنسبة لي، ومفرحة لبعض الوقت.

قلت ببرود:

-"هكذا؟ دون طلب الغفران، أو حتى تبرير ما حدث منك؟".

قال بارتباك:

-"هذا ما أريد قوله لك. أنني... أنني...".

قلت بحدة:

-"ماذا؟".

يبدو أن صوتي كان عاليًا في تلك اللحظة، فقد اشرأبت الأعناق فضولًا.

خفضت صوتي وجلست فجلس هو الآخر.

قلت بحدة منخفضة:

-"ماذا تريد القول يا سامح؟".

فرك يديه:

"أريد أن أقول إنني مخطئ، لا لست مخطئًا فحسب، بل ارتكبت أكبر خطأ في حياتي حين خنتك".

كلماته كان لها مفعول الثلج على قلبي المحترق، وقد كدت أسمع صوت التقاء الماء بالنار بذلك الهسيس المميز.

كنت أعرف أن كلماته تمثل قبلة الحياة بالنسبة لي، فلبضع أشهر مضت كنت أتساءل عن مفهوم الوفاء والخيانة، وإلى أي مدى يمكن للمرء أن يسامح ويغفر؟ أعترف أن هذا المشهد دار في ذهني بأكثر من صورة، لكنه يدور حول ذات المعنى: *أنه يندم ويعود ويعتذر ويقبّل الأيادي طلبًا مني الصفح.*

هذا يُبرّد لهيب كرامتي الموجوعة، ويطفئ بركان الغيظ الذي يموج بداخلي.

هل الأحلام تتحقق؟

في تلك اللحظة بالتحديد كان قلبي يخفق بقوة ويصرخ كالمجنون: *بالفعل تتحقق!*

كان لا يزال يفرك يديه، وواصلت بذات البرود الذي لا يعبر على الإطلاق عما يغلي بداخلي:

-"لم تخبرني ماذا تريد؟".

-"أخبرتك".

رمقته بنظرة باردة صامتة. بدا أنه متوتر، حركة فركه ليديه تزايدت، وشعرت بشيء ينحشر في حنجرته يريد التعبير عنه، لكن لا يعرف كيف!

خطر لي أنه لا يريد الاعتراف أنه مخطئ، لا يعرف كيف يطلب السماح في شيء مثل هذا!

قلت ساخرة، وأنا أدفعه دفعًا للاعتذار:

-"هل ترى أنك مخطئ فيما فعلته؟".

قال بسرعة:

-"بالتأكيد. إنه خطأ لا يُغتفر، لكن...".

تحفزت في جلستي:

-"لكن ماذا؟".

قال بحيرة ملوحًا بيديه:

-"كأني لم أكن أنا".

انتفضت في جلستي:

-"ماذا تقول؟".

قال وهو يتراجع للخلف:

-"كما أخبرتك".

قلت ببرود:

-"هل مسَّك عفريت؟".

قال بشرود:

-"أحيانًا أظن أن هذا ما حدث، كأني لم أكن أنا، كنت شخصًا آخر!".

حدقت إلى وجهه غير مصدقة. هل يسخر مني؟ هل هذا ما وصل إليه عقله اللوذعي في تلفيق الأعذار؟

قلت ببطء كأني أستوثق مما يقوله:

-"شخصًا آخر؟ هه!".

قال فيما بدا لي أنه صادق في كلامه، أو يصدق ما يقول على الأقل:

-"هو كما أخبرتك، فمن المستحيل أن أخونك بكامل إرادتي يا فريدة".

الكلام في حد ذاته كان أشبه بقطعة ثلج سقطت على جمرة متوقدة، لكن لسبب مفهوم لكمْ وددت لو حشرت تلك الجمرة المتوهجة في حلقه!

بالطبع لم يكن هو، كان شيطان شهوته هو المسيطر، لكن في النهاية يظل هو ذات الشخص!

هل يسخر مني؟ من يظنني؟

قمت فنهض وهو يقول:

-"إلى أين؟".

وضعت يدي على شفتي علامة على أنني أطلب منه أن يخرس، وانتحيت ركنًا قصيًّا آخر عنه وجلست بمفردي، متجاهلة نظرات جيهان القلقة التي تختلسها بين الفينة والأخرى، كأنها تتوقع حدوث مشاجرة عنيفة تفسد حفل خطبتها، أو أن أفقد أعصابي وأقوم بشجّ رأسه!

في الحقيقة كل هذا من الممكن أن يحدث بالفعل، وهو ما جعلني أبتعد عن الشرّ دون أن أغني له طبعًا.

لكن سامح لم يتركني في حالي، فنظراته المركزة عليّ تتبعتني طوال تحركي في الصالة، الذي لم يكن

هينًا عليّ على أي حال، فلم يكن هو وحده من ينظر، بل كان هناك ممن أعرفهم يرمقونني بفضول أقرب للشماتة، ولا بد أنهم في أماكنهم البعيدة نسبيًّا يمكنهم رؤية سامح أيضًا في مجال أبصارهم وهو يتتبعني.

الأحمق! ما الذي يريده مني؟

أعرف طبعًا ماذا يريد مني، والندم الذي يأكله بالداخل يسري ويجعلني أنتشي، برغم ملامح وجهي المتجهمة، أعترف بذلك الآن فلا معنى لإخفائه.

لكن هذه النظرات اتخذت منحنى متوقعًا بعض الشيء بعد انتهاء الحفل.

نسيت أن أقول إنني -وأنا أقبّل جيهان توطئة للمغادرة-لمحته بطرف عيني وهو يتتبعني، وكنت سعيدة.

أعترف أن سامح كان عالمي لفترة كبيرة من حياتي.

بعد الدراسة الثانوية، كنت أشبه بصفحة بيضاء من غير سوء، وثمة أحلام وردية عن الحب في عقلي وقلبي تتجسد ببطء من خلال عالم مُتخيل كامل.

كان قلبي البكر أول من طرق بابه وسرقه هو سامح!

كنت في السنة الثانية من الكلية، وصديقاتي تتحدث كل منهن عن حبيبها وكنت أشعر بالضيق من هذا، لماذا لا يحدث لي ما يحدث لهن؟

لكن ما حدث لهن حدث لي في السنة الرابعة، حين قابلت سامح لأول مرة.

كان في نفس السنة، وإن كان أكبر مني بسنوات بسبب رسوبه عدة مرات في الكلية.

وسيم هو، أنيق، خفيف الدم، وسقطت في هواه بسرعة.

لا أعرف كيف تمَّ هذا، وما هي الآليات الغامضة التي يعمل بها الحب، لكنه حدث وانتهى الأمر، ووجدتني أعيش فترة قاسية جدًّا في حب شخص لا يشعر بي، أو بالأحرى يتعامل معي كما يتعامل مع الآخرين بدون زيادة أو نقصان.

قبل الامتحانات النصفية من العام وصلتني رسالة منه أنه يحبني مثلما أحبه!

وهكذا آمنت بوجود السعادة الحقة في العالم، حتى ظننت الأمر كأنه خدعة ما، لكن بمرور الوقت وبعد ارتباطنا تأكد لي أنه يحبني، لكن ما معنى هذا الآن، وأنا أتجرع المرارة؟

انتشلني من ذكرياتي وآلامي وهو يمسك يدي فجأة فالتفت إليه بنظرة فزع سرعان ما تحولت لأخرى شرسة، وأنا أصرخ في وجهه:

-"ماذا تريد؟".

قال بضيق:

-"اخفضي من صوتك ودعينا نتكلم في ركن بعيد".

كررت بعصبية توشك أن تفلت من عقالها وتأكل الأخضر واليابس:

-"قل لي: ماذا تريد؟".

نظرة شخص وجد نفسه حبيسًا تنعكس على وجهه. أخذ نفسًا عميقًا وقال:

-"سامحيني".

حدقت إلى عينيه مباشرة وسألته:

-"قل لي أنت أولًا: هل هي مرة واحدة، أم أنك فعلتها أكثر من مرة مع تلك الساقطة؟".

رمش بعينه اليسرى وهو يقول:

-"مرة واحدة فحسب".

الآن تأكدت من أنه خائن وكذاب أيضًا!

عينه اليسرى ترمش حين يكذب، إنه جهاز الكشف الخاص به، والذي لا يعرف أنني أعرفه!

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنفلت من ذراعه دافعة إياه بعيدًا، وأركب سيارتي وأنطلق، وبالكاد أرى الطريق أمامي بسبب الدموع النازلة، بينما صوتي يتعالى بالبكاء كطفلة تركها أبوها في الحديقة وحيدة!

إذن فلم تكن مرة واحدة، الوغد فعلها أكثر من مرة! ربما لو كانت مرة واحدة، ومع طلب مغفرته

لقلت الضعف البشري موجود، لكن أكثر من مرة، فهذه خيانة مع سبق الإصرار والترصد!

***

(4)

أوقفت سيارتي على الكوبري العالي وسط عتمة تبدو كأنها تبتلع النجوم نفسها!

خرجت ببطء والصمت يحيط بي من كل جانب إلا من همس الريح العابرة، وجلست على السور القصير، وساقاي تتدليان في الفراغ، والظلام تحتي يبدو بلا قرار.

للحظة واحدة فقط، خطر لي أن أنهي كل شيء، أن أتخلص من هذا الثقل الرهيب الذي يجثم على صدري كجبل من الألم، لكنني قلت لنفسي وأنا أرمق الهاوية: لا أريد أن أتعذب دنيا وآخرة، ثم إنني لا أملك الجرأة على ذلك. أليس من السخف أن أموت من أجل رجل لا يستحق حتى دمعة واحدة؟

وبينما أنا غارقة في تأملاتي المريرة، هبَّت نسمة هواء قوية منعشة عجيبة جعلتني أسترخي في جلستي على الكوبري، لدرجة أني أغمضت عينيَّ باستمتاع، وخدر لذيذ يتسلل لجسدي، لكن عقلي أهاب بي أن أستيقظ، فهذا ليس مكاًنا مناسبًا للاسترخاء.

كان على حق، لذا فتحت عينيَّ، وهممت بالنهوض، هذا قبل أن أرى ذلك الشيء: علبة صغيرة ذات لون أحمر داكن تشبه القطيفة تستقر على الأرض بجواري!

تلفت حولي، وكأني أتوقع رؤية صاحبها، لكن لا أحد هنالك!

انحنيت وأمسكت بالعلبة وفتحتها بحذر، وإذا بي أجد بداخلها شيئًا عجيبا: مجرد مفتاح!

قلّبت المفتاح في يدي متحيرة. ليس شيئًا قيّمًا يوضع في علبة قطيفة، إلا لو كان المفتاح نفسه يقود لشيء ثمين.

هذا ما خطر في بالي.

وتأملت المفتاح: مفتاح قديم هو، عليه نقوش بالغة الصغر، مكتوبة بلغة غريبة!

مكثت في مكاني لساعة أخرى، على أمل أن يعود صاحب العلبة، لكن لم يعد أحد، ومن ثمَّ فقد وضعته في حقيبتي وانصرفت.

***

جلست بصمت أرمق الجالسين حولي.

كانت المرة الأولى التي أزور فيها مكتبة عامة، لكني مضطرة، فهناك أعرف أني سأجده، ويمكنني

التحدث معه بحرية، دون أن أستوقفه أثناء صعوده لشقته في العمارة.

هببت واقفة حين رأيته:

-"أستاذ نديم!".

بدات الدهشة على وجه نديم برهان ثم الحبور:

-"مدام فريدة؟! كيف حالك؟".

قلت بعصبية:

-"لا تقل مدام!".

قال بذات الدهشة:

-"ألم تتزوجي؟".

قلت بحدة، حتى أن صوتي قد ارتفع قليلًا، والتفت بعضهم إليَّ:

-"وتطلقت! فلا داعي لأن تذكرني بهذا".

بدا الحرج على وجهه، ثم قال ببشاشة مفتعلة وهو يشير لمنضدة خالية بجوار النافذة، وتقع في ركن خال، بجوار حجرة صغيرة بدا أنها خاصة بأدوات النظافة، وهذا يشرح لما هي مهجورة هكذا!

-"لماذا أنتِ واقفة؟ فلنجلس".

فجلسنا.

غمرنا الصمت للحظات، ثم وجدت أننا لو ظللنا هكذا، ستقوم القيامة ونحن لا نزال في مكاننا.

تنحنحت وأخرجت علبة القطيفة، وسط نظراته المتسائلة، ثم أخرجت المفتاح ووضعته أمامي بدون أن أُعقّب بكلمة.

قال بحذر:

-"ما هذا؟".

أخذت نفسًا عميقًا:

-"مجرد مفتاح، لكني لا أعرف ماذا يفتح بالضبط! وجدته أمس ملقى على الأرض، وعليه هذه النقوش العجيبة. خطر لي أنك الوحيد الذي يمكنه مساعدتي".

أطلق ضحكة قصيرة:

-"ولماذا ظننتِ هذا؟".

أربكتني ضحكته وقلت:

-"بسبب الكتب التي تحملها دومًا. شخص مثلك يقضي جُلّ وقته في المكتبة وبين الكتب لن يعدم طريقة لكي يعرف ماهية هذه النقوش".

بدا عليه التفكير، وهزّ رأسه وكأنه يجد رأيي منطقيًا.

الحق أني كنت في أشدّ الحاجة لشيء يلهيني عما أنا فيه. تأمل المفتاح من بعيد وقال:

-"عليه نقوش باللاتينية بالفعل، على جانبيه، وهي صغيرة الحجم جدًا، لكني يمكن ملاحظتها هنا بوضوح بسبب نظارتي الطبية. النقوش تتكلم عن خطر بشع ينتظر خلف...".

قلت بدهشة وأنا أمسك المفتاح:

-"كل هذا أمكنك أن....".

وهنا لم أكمل، لأن شيئًا مخيفًا قد حدث، فقد توهج المفتاح، توهج بشكل مفاجيء، بلون أصفر داكن، ووجدت يدي تطبق عليه بقوة، والمفتاح يتحرك بسرعة رهيبة نحو باب حجرة النظافة، وأنا خلفه طبعًا!

ندت مني صرخة قصيرة فزعة كتمتها بسرعة، والمفتاح يثب في ثقب الباب، ويدور بسرعة، ووجدت

نفسي أُدفع بقوة للداخل، وفجأة تحرك نديم خلفي، وهو يثب عبر الباب خلفي، و.....

***

(5)

كان صوتي يرتجف، وأنا أقول:

-"معذرة، هل يمكن أن تخبرني أين نحن بالضبط؟".

قال نديم بحذر وهو ينظر أمامه:

-"لستُ متأكدًا بعد".

عندما عبرنا الباب وجدنا أنفسنا في مصعد. نعم، كنا في مصعدٍ، ومما بدا من الأرقام المضيئة أنه كان يصعد. تمتم نديم:

-"يبدو أننا نصعد إلى مكانٍ ما".

قلتُ بصوت مرتجف:

-"كيف نعبر حجرة باب النظافة إلى مصعد؟!".

قلت لنفسي: *والأعجب من ذلك حين توهج المفتاح واقتادني خلفه كالبهيمة؟ هل هو مفتاح سحري يقود لمكان ما كما نرى في الأفلام؟*

همّ بقول شيءٍ ما، لكن باب المصعد انفتح في ذات اللحظة، وأطللنا على صالة واسعة أنيقة، تضجّ بالحركة.

قال نديم:

- "يبدو أننا في شركة ما! هل هي شركة أم مكتبة؟".

لمحت فيضًا من الحيرة والخوف على وجهه كما هو متوقع، وكنت أكثر حيرة منه وخوفًا.

-"فريدة! فريدة!".

أتى الصوت من مكانٍ ما؛ فخفق قلبي على الرغم مني وأنا ألتفت إلى مصدر الصوت. كان شابًا في منتصف الثلاثينات يهرع إليّ، وعلامات الدهشة على وجهه. قال:

-"ما الذي أتى بكِ إلى هنا يا فريدة؟ هل كل شيء على ما يُرام؟".

قلتُ بدهشة مضاعفة:

-"مجدي؟ ماذا تفعل هنا؟".

قال:

-"أنتِ ما الذي تفعلينه هنا؟ هذه أول مرة تأتين فيها إلى الشركة. لا بد أن سامح سيسعد كثيرًا بوجودك".

شعرتُ بصداع لعين. إنه يأتيني عندما تتزاحم الأفكار بشكل مضطرب وتضغط على جمجمتي. بالرغم من هذا؛ فقد بدأتُ أخمن أين أنا:

-"هل نحن في الشركة التي تعمل فيها أنت وسامح؟".

قال بحذر وهو ينتبه لوجود نديم برهان لأول مرة:

-"من الغريب أن تسألي هذا السؤال. كيف أتيتِ إلى هنا إذن. معذرة: من هذا الرجل؟".

قلتُ:

-" إنه نديم نديم برهان. أجبني على سؤالي".

قلتها بعصبية نوعًا. قال مجدي بتؤدة:

-"هل أنتِ بخير يا فريدة؟ ليس من المعقول أنكِ أتيتِ إلى هنا وأنتِ نائمة بصحبة هذا نديم!".

كلامه كان يحمل معنى آخر سخيفًا، لكنني تجاهلته، وقلبي ينبض.

تركني مجدي بخطوات سريعة، فخمنتُ بأنه يخبر سامح بالطبع.

هذا خبر الساعة بالنسبة له، ومن الحماقة ألا يكون هو أول من يذيعه بين الموظفين، سيرون الآن المرأة التي طلقها رئيسهم في العمل، وهي تأتي لمقر عمله لتخطب وده مجددًا.

أعترف أني تيقنت في تلك اللحظة أن المفتاح يقود لأماكن بعيدة جدًا، إنه أشبه بأداة انتقال آني متفوقة جدًا، حيث يعبر المرء عشرات الأميال في لحظة واحدة!

هل هناك مكان في هذا العالم الواقعي القاسي للعجائب التي نراها في الأفلام و نقرأها في الكتب؟

لاحظت أن وجه نديم متجمد، وهو يحدق إلى أعلى فنظرت إلى حيث ينظر، ورأيت ساعة عملاقة مضيئة على أحد الجدران.

بدا لي الأمير عاديًا، ثم فطنت لوجود شيء خاطيء، ثم فهمت أخيرًا، وأنا أضع يدي على فمي من شدة الصدمة، وإلا كنت سأصرخ كالبلهاء!

فقد كانت الساعة تشير إلى تاريخ العشرين من ديسمبر العام الماضي!

أي قبل خيانته لي بعشرة أيام!

***

(6)

للحظة أصاب عقلي تجمد يشبه Error 404 الذي نراه في الإنترنت!

اقترب مني نديم وقال بصوت منخفض:

-"معنى هذا أن المفتاح....".

قلت برهبة:

-"أن المفتاح يقود لأماكن وأزمنة مختلفة!".

تمتم نديم بانبهار:

-"واو!".

يمكنني بالطبع أن أتكلم لساعات عن مقدار الدهشة والحيرة وعدم التصديق الذي كان يهدر كالبركان داخلي، من خلال اكتشاف هذه الحقيقة (الحقيقة التي لا يمكن تصديقها لو جاز التعبير!)، والتي يبدو أن نديم نفسه كان يشعر بها أيضًا مما كان يظهر على وجهه، لكني بهذا سأكون مملة.

لذا ساتجاوزها إلى صلب الموضوع.

إذن فالسفر عبر الزمان والمكان من خلال مفتاح غامض ممكن؟

من العبث أن أقول ممكنًا علميًا، أو ممكنًا منطقيًا فلا أرى شيئًا من هذا أو ذاك في ذلك!

التفتُّ إلى نديم، والذي كان ما يزال يتأمل الوضع حوله بارتباك وسألته:

-"كيف وصلنا إلى هنا؟ هل يمكن أن يكون الأمر خدعة، مثل الكاميرا الخفية مثلًا؟".

هز رأسه:

-"كل شيء يقول بأن ما حولنا حقيقي".

تنهدتُ في قنوط. لن آخذ منه شيئًا مفيدًا، فهو مثلي يتخبط في الظلام!

تركتُ نديم يمارس تأمله الفضولي في المكان، ورحت أبحث عن سامح، وكان هو هناك في حجرة مكتبه الصغير، يتحدث إلى زميلته الموظفة، التي كانت تولينى ظهرها فحسب من خلال الحاجز الزجاجي، بينما هو يلوح بيديه ويتكلم بحماس، قلَّما أراه عليه في البيت؛ مما أشعرني هذا بالضيق والحزن والقهر.

لكن ثمة شعورًا راح يتصاعد بداخلي أكثر ويزيح تلك المشاعر بقوة ويحتل مكانها، ألا وهو شعور الانبهار.

كيف غفلتُ عن هذا؟

إنني قفزتُ عبر الزمن لأرى زوجي قبل خيانته. هل يمنحني القدر فرصة لكي أطبب قلبي مجددًا، ويفاجئني بشيء بخصوص زوجي، بحيث تتخذ الأمور مسارًا مختلفًا؟

بعد برهة رأيتُ مجدي يميل نحو سامح ويقول له عدة كلمات، غاب بعدها الحماس من على وجهه، وحلت مكانه دهشة وضيق، بينما تحركت المرأة وقد بدا أنها سمعت ما قاله مجدي وهي تلتفت لأرى وجهها الجميل الصبوح الذي بدا لي مألوفًا، ثم تذكرتُ أنها تلك المرأة التي شاهدتُ زوجي يخونني معها!

***

كان هناك غضب وعدم فهم وأنا أُسرع ناحية المصعد.

أريد الهروب بسرعة قبل أن تفضحني عيناي. المصعد كان مشغولًا؛ فأخذت السلالم لأسفل، والمرئيات تتشوش أمامي بفعل الدموع التي راحت تنزل.

لحقني بي نديم وهو يلهث على السلم.

-"إلى أين؟".

التفتُّ نحوه بشراسة وقد وجدتها فرصة لكي أصبّ جام غضبي عليه:

-"لماذا أتيت بي إلى هنا؟".

حاول الكلام لكنه كان يلهث، وهو يستند للجدار بيديه. ثم عندما عرف أن يتكلم قال لي:

-"أنا لم آتِ بكِ إلى هنا. المفتاح هو ما فعل هذا. هل نسيتِ؟".

قلتُ له:

-"وهل أتى بي الباب إلى هنا لكي أتعذب مجددًا برؤيته بصحبة تلك الوضيعة؟".

قال:

-"ورطتنا أكبر من مسألة عذابكِ أمام غريمتك. نحن في مكان وزمان مختلفين لسبب مجهول. ألا يثير هذا فضولك أو حتى رعبك؟ ألا تدركين حجم خطر الذي نواجهه؟".

قلتْ بعصبية:

-"بالطبع يوجد خطر؛ ما دامت تلك الحرباء توجد هنا. تلك الحقيرة، خاطفة الرجال".

تنهد بضيق، وكأنه يقول: *كأن هذا ما ينقصني!*

بدرت حركة ما بالقرب منا؛ فالتفتنا إلى مصدر الصوت بشكل تلقائي. كانت هناك امرأة تقترب منا. امرأة أنيقة، ذات عينين حمراوين تؤكدان أنها قضت فترات طويلة في البكاء المضني.

قالت بصوت مُتْعَب:

-"معذرة: هل تقولان خاطفة الرجال؟".

قال نديم برفق:

-"كيف يمكن أن نساعدك يا سيدتي؟".

قالت:

-"أنا زوجة أحد الموظفين هنا، وأنا أشك في خيانته لي. لقد صار باردًا سخيفًا مجردًا من العواطف منذ عدة أيام، وفشلتُ في معرفة ما اعتراه. قلت في نفسي الموضوع فيه امرأة. تصادف أن سمعت كلامك يا مدام، من أجل هذا أسأل".

لمعت عيناي بانتصار. التفتُّ إلى نديم وقلتُ:

-"أرأيت؟ امرأة لا أعرفها ولا تعرفني، وتوافقني على ما أقول".

لم يلتفت إليَّ نديم حتى وهو يولي اهتمامه للمرأة، والتي تابعت بشيء من الحماس:

-"وليس زوجي فحسب. أتيت منذ يومين ولاحظتُ أن أكثر من زميل له -وأنا أعرفهم بطبيعة الحال لكثرة ترددي عليه في العمل -لديهم نفس الأعراض".

تمتم نديم وهو يحك ذقنه الحليقة:

-"الأعراض؟! لماذا استخدمتِ هذا اللفظ تحديدًا يا سيدتي؟".

هزت كتفيها:

-"كأنهم مرضى. شيء ما أصابهم وجعلهم يتصرفون هكذا!".

أصدر نديم همهمة من بين شفتيه.

ملتُ نحوه:

-"ما الذي يدور في ذهنك يا أستاذ؟".

للمرة الثانية تجاهلني، وهو يسأل المرأة:

-"هل لاحظتِ شيئًا غريبًا على زوجك يا سيدتي؟".

قالت بحذر:

-"مثل ماذا؟".

قال نديم:

-"شيء لم يكن موجودًا من قبل، أو العكس. أرجوكِ حاولي أن تتذكري جيدًا".

وجهها يُعلن أنها تعرف شيئًا بالفعل. بدا ذلك من غيمة التردد التي تجلت على ملامحها، تردد ممزوج بالخجل.

-"هناك شيء ما أثار رعبي في البداية".

سألها نديم باهتمام:

-"وما هو؟".

-"ثمة أثر لجرح ملتئم حول قلبه".

كنتُ أنا من تكلمت هذه المرة، وقد قررت الانتقال من مقعد المتفرجة إلى مقعد المشاركة:

-"وما الغريب في هذا؟".

أجابت المرأة:

-"لم يكن هذا الجرح الملتئم موجودًا من قبل!".

قال نديم ببطء:

-"هل هناك احتمالية لأن يكون قد اختلط عليكِ الأمر؟".

هزت رأسها:

-"لا، أنا متأكدة أنه لم يكن هناك جروح ملتئمة في جسده كله. وفجأة بين يوم وليلة رأيت ذلك الجرح، وكأن ثمة عملية أجريت لقلبه! أعرف زوجي

جيدًا، ومن المستحيل أن يكون قد دخل المستشفى من غير علمي، ثم أية عملية هذه التي تأخذ عدة ساعات فحسب، ثم يخرج ويزاول حياته بدون مشاكل؟!".

قال نديم مفكرًا:

-"شيء غريب فعلًا".

ثم صافح السيدة بحماس:

-"عودي لمنزلك يا سيدتي، وتظاهري أنك لا تعرفين أي شيء، وسأتولى الأمر".

قالت بلهفة:

-"هل ستعيد لي زوجي السابق، وليس ذلك الآلي البارد؟".

قال بتحفظ:

-"سنفعل ما بوسعنا".

انصرفت المرأة بخطوات سريعة مضطربة، بينما أنا أبتسم، لقد اندمج نديم في المكان والزمان، وتعامل مع واقعنا الجديدة كمغامرة!

أعجبني أنه استخدم نون المشاركة هنا، وكأنه يقوم بعمل اعتبار لي. نسيتُ تجاهله السابق لي، وهو يلعب دور المحقق. مصيبة لو كان يقصد نفسه بنون التعظيم!

عدنا للشركة، ثم تفرقنا، وكل واحدٍ منا يبحث عن شيء ما. بالنسبة لي فكان من السهل أن أعرف أن قلبي لا يزال معلقًا بسامح.

لم يكد يخطر ببالي حتى وجدته يمسك بمعصم يدي، وهو يجذبني لركن خالٍ:

-"تعالي".

حدقتُ إلى وجهه برهبة.

لم أستوعب بعد مسألة السفر عبر الزمن هذه! قال سامح بصوت ملآن غضبًا، وعرق في جبينه يرتجف ذكرني بأبي:

-"هل من الممكن أن أعرف ما الذي تفعلينه هنا؟".

أزحتُ يده بغلظة:

-"وما شأنك أنت؟".

قال:

-"أي سؤال هذا؟ ليس من عادتك القدوم إلى هنا يا فريدة. ما الذي جد اليوم حتى تكسري عادتك هذه؟ كل علاقتك بعملي هو إعدادك لصندوق الطعام فحسب، الذي يلتهمه أصدقائي شاكرين، فما معنى وجودك الآن؟".

ارتبكتُ. سيكون من العبث أن أحكي له عن المفتاح الغامض، وباب حجرة النظافة الأكثر غموضًا. ضحكات سامح ستصل إلى الشارع وهو يستلقي على قفاه من هذه الحكاية المسلية التي تفوح منها رائحة الكذب!

في تلك اللحظة ظهرت الفتاة وهي تحمل ملفًا متجهة إلى حجرة في آخر الممر مكتوب عليها مدير القسم.

أشرتُ إليها:

-"ما العلاقة بينك وبينها؟".

قال بدهشة:

-"ياسمين؟ إنها زميلتي في العمل".

قلتُ بحدة:

-"كنت أظنها مجرد عاهرة!".

قلتها وأنا أتذكر منظر الخيانة المؤلم!

أمسك يدي مجددًا، وهمس:

-"عيب، هذا الكلام لا يليق. اذهبي للمنزل الآن، وسنتكلم عندما أعود".

قلتُ بعناد:

-"لن أذهب. أخبرتك أنا هنا ليس من أجلك".

وخفتت حدتي وأنا أكمل:

-"من المؤكد أنني لست هنا من أجلك".

ثم تلاشت تمامًا وأنا أقول باضطراب:

-" ستكون مصيبة لو كنت هنا من أجلك!".

قال وهو يتمالك أعصابه بشدة توطئة لأن ينفجر في وجهي:

-"من أجل ماذا إذن؟".

ظهر نديم وهو يقول:

-"هل توصلتِ إلى شيء؟".

سألني سامح:

-"من هذا الأخ؟".

رددتُ باقتضاب:

-"نديم".

ووجدتها فرصة لكي أتصرف بجنون قليلًا.

قلتُ وأنا أرفع رأسي بكبرياء:

-"عن إذنك".

وتحركتُ بشكل عشوائي لركن بعيد نوعًا عن سامح ونديم يتبعني بخطوات بطيئة، وكأن لديه الوقت كله، وهي جملة دقيقة بدت مناسبة بشكل مدهش للموقف الذي نحن فيه!

سألته وكأنه يعمل عندي:

-"هل هناك جديد؟".

أشار إلى شاب نحيل يتحرك ببطء بملامح ثلجية مقلقة.

-"هل ترين هذا الشاب؟".

-"أراه".

أشار إلى آخرين:

-"وهذا، وهذا، وهذا".

قلتُ:

-"لهم ذات الملامح الجامدة الغريبة!".

قال نديم وهو يحك ذقنه كعادته:

-"ما الذي يعنيه هذا؟".

قلتُ له:

-" من المفترض أن أسألك أنا هذا السؤال، وأنت تجيب يا أستاذ! أنت الشخص الأكثر ذكاء هنا كما هو مفترض، أم أن هذه الكتب لا تفيدك بشيء!".

قال بضيق:

-"تفهمين الكتب على نحو خاطيء يا مدام... آآ... أقصد يا أستاذة هل هو مرض ما مثلًا يؤثر على ضحاياه؟".

راح يطرح افتراضاته.

قلتُ وأنا أهز كتفي بتهكم بدا أن نديم لم يلحظه:

-"أو أنها مجرد حالة من البلادة. الحياة صارت صعبة، ومن الممكن أن...".

قاطعني:

-"الضغوط تخلق أناسًا قصيري الفتيل، ينفجرون مع أول مؤثر، ويحتشد الدم تحت جلدهم توطئة للانفجار. لكن ما نراه الآن لشيء مختلف مع هؤلاء الجامدين".

كان منطقه سليمًا، لكني لم أشعر برغبة أن أقر بذلك.

نديم مثل سامح، ينتظر فقط الفرصة لكي يصير مثله؛ مجرد وغد!

ضبطتُ نفسي أنظر إليه بعدائية؛ مما أفزعني هذا، وجعلني أبتلع ريقي برعب حقيقي!

هل هذا ما تفعله بي هذه العلاقة السامة بزوجي؟ أقصد طليقي، وإن كان هو زوجي فعلًا في ذلك الزمن الذي يسبق طلاقي بأشهر!

قال نديم وهو يشير إلى مجموعة من الموظفين:

-"انظري إلى هؤلاء بنفسك، وأخبريني برأيك".

تتبعتُ أصابعه حيث تشير... هذا الموظف... وذاك، وذلك الذي يجلس في ركن الصالة الفسيحة، التي تحتوي على عشرة مكاتب. دققتُ النظر أكثر. بالفعل، يسيرون كالآلات التي تسير بدون أية انفعالات على وجوههم.

قال نديم بحيرة:

-"أوقفتُ أحدهم وسألته سؤالًا تافهًا. وجدته يجيبني بأريحية دون تعقيدات، لكن بلا انفعالات، بلا أي شيء بشري حميمي، كأنه إنسان آلي!".

ووجدتُ نفسي أضحك لمجرد تصوّر الفكرة. نظر إليَّ بغيظ.

دافعتُ عن نفسي قائلة:

-"هل ترى أنهم آليون بالفعل؟".

قال:

-"هذا احتمال مطروح على المائدة".

قلتُ برفق:

-"دقق النظر جيدًا في وجوههم. إنها وجوه تجري فيها الدماء، عيونهم تلمع بالحياة، خطواتهم متخشبة نعم، لكنها خطوات بشرية".

قال:

-"حقًّا؟!".

رمقته بنظرة مشتعلة.

لم يبدُ أنه شعر بارتباك خطأ ما، فقد قال بعد برهة:

-"على أية حال؛ سنعرف الحقيقة عاجلًا أم آجلًا".

ثم قال وهو يعود لحكّ ذقنه، والتي بدا أنها من عاداته الأبدية:

-"من الغريب أن يحدث خطر يتعلق بكِ بعد دقائق قليلة من وصولكِ للشركة، وهذا يجعلني أشك في أن الأمر مجرد صدفة!".

قلتُ باندفاع:

-"تقصد أني أحمل سرًّا ما، أم أنني بومة تجلب النحس أينما حلت؟".

-"أجل".

لم أفهم هل هو يقصد الأولى أم الثانية أم الاثنين معًا، ومع ذلك فقد هززتُ كتفي، وقلتُ في محاولة لاستفزازه:

-"أو ربما هو أنت جلّاب المصائبّ!".

في تلك اللحظة أدركتُ أنني لا أستطيع أن أميز لون عينيه فعلًا!

لوهلة تبدوان سوداوين، ثم في لحظة أخرى تبدوان عسليتين مثل عينيَّ، وشعرتُ بالخوف منه، وأنا أبتلع ريقي.

تحت حُمّى الهروب من طليقي والذكريات التي تنهش فيّ كغربان حادة المناقير، وتحت وطأة شعوري بالإثارة والتحمس وأنا أنجرُّ وراء ذلك الرجل الذي عليه سمتُ نديم، واسمه نديم، ويتصرف كنديم الذي أعرفه؛ لم أتبين حقيقة هذا الأخير بعد!

لكن عقلي قال وهو يتثاءب: *الأمر أبسط من ذلك. لقد كان موجودًا فحسب في الزمان والمكان غير المناسبين!*

ثم ابتسم بخبث وهو يستطرد: *أو ربما المناسبين!*

والآن، وأنا أحدق في وجهه أرى عينيه وهما تتحولان للـ:

-"لون أخضر".

قلتها بغتة، وقد قررت أن أنقل أفكاري من عقلي إلى لساني، وبدون مقدمات، وكأن الواقف أمامي سوف يقرأ أفكاري، ويعرف ماذا أقصد دون أن يشعر بالارتباك!

لكن نديم شعر بالارتباك فعلًا وهو يقول مندهشًا:

-"ماذا تعنين؟".

أشرتُ إلى عينيه:

-"عيناك خضراوان الآن؟، ومنذ قليل كانتا عسليتين، وقبلهما كانتا...".

قاطعني بضحكة خافتة.

بُهِتُّ وأنا أصمت. هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها يضحك.

قلتُ بغيظ:

-"هل هناك ما يُضحك فيما أقوله؟".

أشار لما ورائي؛ فنظرتُ.

كان هناك بعض الموظفين يقومون بتعليق الزينة، وكرات كريستالية ملونة تتحرك بألوان قوس قزح بشكل مستمر.

قلتُ وقد فهمت أن الضوء انعكس على عينيه:

-"آآآآآآآآه. فهمت".

وشعرت بالخجل. قلتُ في محاولة بائسة للتغطية على اندفاعي:

-"وما المناسبة؟".

قال نديم وهو يراقب الجوّ حوله بعينيّ صقر:

-"لا بد أنه عيد ميلاد أحدهم. لا أظن أنه أحد الموظفين العاديين. هذه رفاهية ليست متاحة لهم. لا بد أنه شخص في أعلى السُلّم القيادي".

-"كالمدير مثلًا".

-"مثلًا".

تلفتُّ حولي:

-"أين هو بالمناسبة؟ كيف يغيب عن هذا السيرك؟".

قال نديم وهو يرمقني بتركيز:

-"وأنّى لكِ أن تعرفي شكله؟".

قلتُ:

-"رأيتُ صورته مرة مع سامح عندما كنا زوجين".

قال نديم بخبث:

-"المفترض أنكما متزوجان فعلًا الآن".

وضعتُ يدي على رأسي:

-"لا تذكرني بهذا! لم أستوعب الأمر حتى الآن! هل من المعقول أنه توجد نسخة أخرى مني في منزل أمي، تشعر بالغضب والحزن من زوجها بسبب شجار سخيف، وتستعد لكي تنزل على كعب رجليها

اللتين ستذوبان حرفيًا من أجل أن تأتي بهدية لهذا الخائن؟".

قال:

-"لا تتعجبي. أنا نفسي لم أستوعب مسألة السفر عبر الزمن بشكل كامل حتى الآن! الأمر مثير للدوار فعلًا!".

قلتُ وأنا أتأمل وجهه الذي لا يميزه أي شيء في الواقع:

-"من أنت يا أستاذ نديم؟ الحقيقة أنا لا أعرف عنك أي شيء فعلي برغم أنك جاري لسنوات!".

همّ بقول شيء ما، للأسف لم يُقدَّر له أن يقوله؛ فقد ظهر مجدي كغراب البين.

-"هل تشاجرتما مجددًا يا فريدة؟".

قلتُ بغلظة:

-"هل حكى لك بهذه السرعة؟".

قال:

-"إنه مشتعل حرفيًا، والدخان يخرج من أذنيه!".

قلتُ بتلذذ:

-"هذا شيء يسعدني".

سأله نديم بغتة:

-"أي حفل هذا؟".

أجابه مجدي ببساطة:

-"إنه حفل عيد ميلاد المدير".

-"وأين هو؟".

-"إنه في مكتبه. الحقيقة أنه من النوع الذي لا يكفّ عن التجول هنا وهناك مراقبًا سير العمل. لكن منذ عدة أيام وهو معتكف في منزله. أول من يأتي، وآخر من يذهب!".

ثم اختفى مجدي كالشبح.

هز نديم رأسه:

-"نبع مثير للمعلومات مجدي هذا!".

قلتُ:

-"إنه ثرثار منذ عرفته. كان يأتي مع زوجي، آآ... أقصد مع طليقي للمنزل، وعندما ينصرف يكون هناك صداع مزمن يفتك برأسي بسبب كلامه المتواصل بلا فواصل!".

ضحك نديم ضحكة قصيرة؛ مما أسعدني.

قلتُ بحماس:

-"فلنقم بزيارة المدير. ألا ترى أن الشكوك تحوم حوله؟".

قال نديم:

-"سنرى".

وتوجه بالفعل إلى مكتب في آخر الممر.

قلتُ بدهشة:

-"هل عرفتَ مكان مكتبه بهذه السرعة؟".

قال:

-"لماذا كنتُ أتجول هنا وهناك إذن؟ مجدي ليس هو الثرثار الوحيد".

وتوجهنا للمكتب. كان هناك خاطر مثير آخر يضرب ذهني. سامح طليقي على مرمى حجر مني -حرفيًا - وأنا أتحرك حوله دون أن يخفق قلبي بقوة، ويجري الدم في عروقي.

سرّني أنني بدأت أتحكم في نفسي إلى حدٍ كبيرٍ، ورمقتُ نديم بطرف عيني في امتنان. هو المسئول الأول عن هذا، فلو أتيت إلى هنا بمفردي، فلا أعرف كيف ستكون ردة فعلي!

ربما أصرخ بدون انقطاع أو أبكي بدون توقف، أو تصيبني لوثة!

طرق نديم المكتب. لا ردّ. لا، بل يوجد ردّ. ثمة حشرجة غريبة راحت تنطلق من خلف الباب، سمعناها بوضوح.

لم يكن هناك وقتٌ للإتيكيت وقواعد الطرق على الباب.

دفع نديم الباب في غلظة، ودخل المكتب وخلفه أنا أطل برأسي بفضول لأرى مصدر الحشرجة.

وكان هناك منظران بشعان.

الأول: أن المدير – ذا الجسد الضخم واللغد المتدلي على صدره -كان يصدر صوتًا من صدره أشبه بالخوار، وكأن هناك من يضع حذاءه على صدره!

الثاني: أن صدر المدير نفسه كان مشقوقًا، وبدت أعضاؤه واضحة للعين، لكن ثمة عضو شديد الأهمية لم يكن موجودًا في صدره: قلبه!

***

(7)

بحثت ببصري عن سلة القمامة حتى أُفرغ فيها ما في جوفي، ومن حسن حظي أن واحدة كانت هناك!

بينما كنتُ أقوم بذلك كان نديم يقترب من الرجل الحي الذي يرمقه بعينين حبيستين تضجان بالألم.

قال بتوتر حقيقي:

-"مستحيل! الرجل على قيد الحياة برغم أن قلبه مُنتزع منه!".

كنتُ أجفف فمي، وأنا أبعد بصري عن المنظر البشع:

-"هذا أبشع منظر رأيته في حياتي يا أستاذ نديم!".

قال:

-"بل هو مشهد شديد الغرابة!".

ثم اقترب من المدير، وسأله:

-"من فعل بك هذا؟".

بدا أن الرجل لا يستطيع أن يحرك لسانه، فقط عيناه الحبيستان، ثم غار النور منهما، وتدلى رأسه على صدره.

***

-"المدير مات!".

-"بل قُتل!".

-" انتزع أحدهم قلبه من صدره!".

-"بل سُحقت حنجرته بوحشية!".

هذه بعض الجمل التي تناثرت هنا وهناك في الشقة الواسعة التي تحتوي على 16 موظفًا فحسب، وقد صاروا 15 برحيل المدير، وهو ما ينبئ عن قوة التخيل عند الإنسان، حتى لو كانت الحقيقة تقبع في الحجرة المجاورة!

طبعًا حاولوا الدخول للحجرة، لكن سامح رفض، والذي تبين أنه في السلم الوظيفي تحت مديره مباشرة، وبينما كانت ياسمين تمصمص شفتيها بأسى على المدير وشبابه كان نديم يجلس على كرسي الاتهام.

كان يقول بصبر نافد:

-"كما أخبرتك أننا قد دخلنا هنا لنجده على هذه الهيئة".

قال سامح:

-"سنترك هذه المسألة للشرطة يا أستاذ. لكن ثق أنهم عندما يعرفون أنك آخر من رآه فأنت المشتبه الأول به".

قال نديم برفق:

-"إذن عليك أن تُجيب على بعض الأسئلة وقتها يا أستاذ سامح".

جلس سامح وقال بعصبية:

-"مثل ماذا؟".

لوح نديم بيديه:

-"كيف فعلتها؟ كيف أمكنني أن أدخل مكتبه وأشق صدره وأنتزع قلبه منه؟ كيف أفعل هذا بدون سلاح ما؟ وكيف أفعلها من غير أن يملأ الدنيا صراخًا وعويلًا؟ وكيف أفعلها في أقل من دقيقتين؟".

كان كلام نديم منطقيًا؛ لدرجة أن الحيرة بدت على وجه سامح، بينما أقف في ركن الحجرة أرمق غريمتي ياسمين بعينين ثاقبتين؛ فلو كنت أملك قوى خارقة لقمت بحرقها بلا رحمة!

دخل مجدي وكان ثمة توتر على وجهه، فسأله سامح بضيق:

-"ماذا؟".

قال مجدي:

-"هناك أشياء غريبة تحدث يا سامح".

-" تكلم ولا تحطم أعصابي بهذه الدراماتيكية".

-"الشقة مغلقة علينا، وحاولنا فتح الباب دون جدوى".

-"ما معنى هذا الكلام الفارغ؟ اتصل ببواب البناية. أليس معك رقمه؟".

-"هذه المشكلة الثانية. لا توجد شبكة، ونحن في الطابق الخامس عشر، ولن يصلح أن يطل أحدنا من النافذة وينادیه".

-"ماذا تقول؟".

واندفع للخارج، وخلفه مجدي ثم ياسمين.

كان المدير لا يزال على مقعده، وإن كان مُغطًّىً بمشمع أبيض.

اقتربتُ من نديم والذي غرق في تفكير عميق، وسألته بصوت منخفض، وكأنني لا أريد أن أقطع حبل أفكاره:

-"هل معنى ذلك أن هناك من يريد حبسنا بالداخل؟".

-"هو ذاك. الخطر موجود هنا بيننا!".

سرّني أنني من تكلمت في جمع الموظفين. وسرّني أكثر أن عينا سامح كانتا تتابعانني بغيظ مستعر.

أخبرتهم بما حدث بدقة، وكان من الطبيعي أن تسري همهمة مندهشة أو معترضة في الجمع الواقف أمامي.

قال مجدي بعصبية، وقد بدا أن أعصابه على وشك الإفلات:

-"تشكان في أحدنا إذن؟".

قال نديم بهدوء:

-"ليس من المفترض أن يكون الخطر شخصًا ما. من الممكن أن يكون شيئًا ما".

قال مجدي ساخرًا

-"وما الفارق أيها العبقري؟".

قالت ياسمين بتوتر أفصح عن نفسه في ملامحها الجميلة، والتي زادها جمالًا وتألقًا:

-"شخص يعني عاقل، شيء يعني غير عاقل. يقصد بالأخير وحشًا ما".

التفتت إليها العيون؛ فقالت مرتبكة:

-"وأنا أميل لكونه وحشًا، لقد رأيتُ مديرنا المحبوب وقد شُق صدره وانتزع قلبه. لا يفعل هذا إلا وحش لا قلب له أو عقل أو الاثنين!".

وانفجرت في البكاء؛ مما جعل بعض الموظفين يرمقونها بشفقة المفتونين لو جاز التعبير.

قلتُ لنفسي بأن الأفعى تمارس تنويمًا على هؤلاء الحمقى، ولو أعلنت لهم بأنها الوحش الذي

تتحدث عنه؛ فسينفجرون في الضحك بسبب جمال دعابتها!

ملتُ نحو نديم وهمستُ في أذنه:

-"هل لاحظتَ ما لاحظته يا أستاذ؟".

-"ماذا؟".

-"البعض رمق هذه الأفعى بشفقة بينما البقية لم تستدر رؤوسهم حتى".

-"فعلًا؟".

كان هذا السؤال يشعرني بالفخر، حتى نديم تفلت من بين يديه أشياء. حكّ ذقنه، مما أنبأني بأن ثمة فكرة ما تعبث تحت جدران جمجمته.

سألته:

-"ما الذي يدور في ذهنك؟".

تجاهل سؤالي وهو يقترب من الموظفين محدقًا في وجوههم كأنما يبحث عن شيء ما.

قال لي:

-"هل ترين؟".

كان يشير لبعض الموظفين الذين جلسوا بهدوء دون أن يرمش لهم جفن. بدا لي أنه ليس مجرد هدوء، بل برود، لا بل جمود!

تذكرتُ أنني تحدثت معه في ذلك من قبل.

قال نديم بلهجة مهذبة وهو يوجه كلامه لموظف رشيق يقف كأبولو:

-"هل تسمح بأن تكشف عن صدرك؟".

نظرات البعض كانت تحمل دهشة، نظرتي كانت تحمل التساؤل، نظرة نديم كما هي مهذبة، فيها لمحة من الحرج وكأن من المريب أن يطلب طلبًا كهذا، لكن الرشيق تجاهله.

هنا مدّ نديم يده إلى صدر الرشيق، لكن هيهات!

ضربة ساحقة ماحقة منه توجهت لفكِ نديم الذي وجد نفسه يطير لثلاثة أمتار في الهواء، وتصطدم رأسه بالكرة الكريستالية الملونة، والتي لم تتحطم لحسن حظ من يقفون تحتها، ولسوء حظ نديم نفسه، والذي شُجّ رأسه، وهو يستند بصعوبة للجدار محاولًا الوقوف من سقطته!

هرعتُ إليه فزعة وانحنيتُ نحوه. رأيتُ خيطًا قانيًا من الدم يسيل منه، وشعرتُ بالشفقة عليه، إنه مجرد بشري ضعيف!

يبدو أن الغموض يخلع على المرء مهابة وشيئًا لا يمت للواقع بصلة!

مددتُ يدي أساعده على النهوض، فقال وهو يلهث:

-"قوته جبارة! أتساءل من أين أتى بها؟".

-"هل يمكن أن يكون هو من قتل المدير يا أستاذ؟".

-"لا أستبعد هذا".

ثم تحرك نحو حشد الموظفين الذي بدت البلاهة على وجهه.

استجمع نديم قوته، وبثها في صوته:

-"اسمعوا يا رجال. لو كنتم تريدون فعلًا أن تخرجوا من هذا الفخ المميت وتذهبوا إلى بيوتكم؛ فأوثقوا هذا الشاب جيدًا ولا تدعوه يتحرك. مفتاح كشف اللغز هنا، أن أكشف عن صدره".

نظرة بلاهة أكثر في العيون المرتجفة، لكن أحدهم تحرك بحذر نحو الشاب الجامد الملامح، والذي خرجت من جوفه زمجرة معترضة جعلت الجميع ينتفضون، ويدركون أن وراء الأكمة طابعًا خوارقيًا مرعبًا!

فعلًا تكأكأوا على الشاب، الذي راح يقاوم ويلقي بهذا هنا وهذا هناك، لكن الكثرة تغلب الشجاعة، وأية شجاعة هنا، بل هي قوة مهولة، وفي النهاية كانت نيران الحماس تصب حممها في عروقهم، وأرقدوا الشاب على منضدة منخفضة، بينما نديم يكشف عن صدره، و....

وتراجعوا جميعًا في فزع!

ففي مكان القلب كانت توجد هناك فجوة قبيحة، حيث لا يوجد قلب أصلًا!

قلتُ وقد اعترتني رجفة:

-"إنه بلا قلب! إنه مثل المدير".

قال نديم وهو يتأمل الشاب الذي بدا هادئًا مستسلمًا، وكأن انفضاح السرّ جعل مقاومته صفرًا:

-"لا أستغرب أن بقية ذوي الوجوه الجامدة قد انتزعت قلوبهم أيضًا".

-"كيف يعيشون بلا قلب؟".

-"هذا هو اللغز، أليس كذلك؟".

ثم تأمل الوجوه حوله، ودمدم:

-"لكن عدونا هنا بين أظهرنا، إنه واحد منكم يا سادة!".

كما هو متوقع سرت همهمة معترضة أخرى.

لا شك أن هؤلاء الرجال (ومعهم الأنثى الوحيدة ياسمين) قد رأوا من الغرائب في ساعات قليلة ما لم يروه قط من قبل.

قال سامح بعصبية:

-"هل تتهم أحدنا؟".

-"أكيد. إنه شخص بينكم، أو منكم، وبما أنكم تعرفون بعضكم جيدًا فهو بالتأكيد واحد منكم، وحش يقوم بشق الصدور وإن كانوا يفقدون حيويتهم، وهذا الشيء الإنساني العفوي، وكأنه يحولهم لبشر بلا أرواح!".

كدتُ أرفع يدي في حماس، وأقول إنني متأكدة بأنها عدوة وليست عدوًا، وأنها أنثى وليست رجلًا،

وأنها ياسمين، وليس أحدًا آخر، لكنني التزمتُ الصمت.

واصل نديم:

-"أعرف جيدًا أن اللعبة قد وصلت لنهايتها. إغلاق الباب، وعدم وجود شبكة للاتصالات يؤكد أنك ستضرب ضربتك الأخيرة، لكن أليس من الأفضل أن تروي فضولنا وتخبرنا عن حقيقتك؟".

سامح صامت، ياسمين تتلفت حولها باضطراب، مجدي يستند إلى الجدار، أما أنا فأتأمل ما حولي بتركيز.

ما زال نديم يجوّل ببصره، ثم قال بعد هنيهة:

-"كأن صديقنا يتحداني ويطلب مني أن أكشف عن حقيقته؟".

قال سامح ببرود:

-"وهل تستطيع أن تفعلها؟".

هز نديم كتفيه وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

-"في الحقيقة أنا أعرف من هو".

ورفع نديم يده وأشار بها إلى مجدي الذي شهق بتوتر، ثم تحرك إصبعه قليلًا إلى وجه سامح نفسه!

***

(8)

كانت الشهقة من نصيبي هذه المرة!

قال سامح بعصبية:

-"ما معنى هذا؟".

-"معناه أنك من وراء كل هذا يا صاحبي".

نظرة البلاهة على وجهي استمرت طويلًا.
الهمهمة المعترضة تدوي كأزيز النحل لثالث مرة.
قال سامح بسخرية:

-"هل هذا ما توصلت إليه بعبقريتك الفذة؟".

أشار نديم إلى أحد المكاتب المتناثرة:

-"أليس هذا هو مكتبك؟".

قال سامح وهو يعقد ساعديه ببرود:

-"وإذن؟".

أشار نديم مرة أخرى إلى نقطة أكثر تحديدًا هذه المرة، إلى جسم صغير مربع ذي لون أزرق:

-"أليس هذا الصندوق الذي تعده زوجتك كل يوم مملوءًا بالطعام عندما تذهب إلى عملك؟".

رمقني سامح بنظرة نارية وكأنني خنته.

لكن هذا لم يمنعه أن يقول:

-"ما علاقة هذا باتهامك بأنني من....".

قاطعه نديم، وهو يقترب من الصندوق:

-"المفترض أن زوجتك غاضبة وفي منزل أمها منذ شهر تقريبًا؛ فكيف تحضر صندوق الطعام معك؟".

بدأتُ أفهم نوعًا. لكن الصورة كانت ضبابية غير محددة.

قال سامح بصوت أسفر عن قليل من العصبية؛ كفأر تتم محاصرته في الركن، وهو يعرف إلى أين يؤدي الأمر:

-"وماذا في هذا؟ أنا أعد الطعام بنفسي لنفسي".

قلتُ بشماتة:

-"كذاب! أنت لا تستطيع سلق بيضة بنفسك!".

فتح نديم الصندوق بحركة مباغتة، وقال:

-"معنى هذا أن الصندوق لا يحتوي على طعام أصلًا!".

صرخ سامح وهو يثب للأمام صارخًا:

-"لا، لا تفعل!".

لكن حركته أتت متأخرة؛ هذا لأن شيئًا مريعًا قفز من الصندوق!

كان مخلوقًا صغير الحجم، بشع الهيئة له عينان حمراوان، وذراعان تنتهيان بمخالب حادة!

قال مجدي وهو يتراجع للخلف باشمئزاز:

-"ما هذا؟".

-"إنه وحش كما هو واضح!".

انعقدت الألسن بدون كلمة، بينما قال نديم وهو يهز رأسه متعجبًا:

-"إذن فسلالة الوحوش هذه حقيقية وليست إشاعة!".

تمتمتُ وعيناي معلقتان الوحش الذي راح يتأملنا بحدة دون أن يقفز مجددًا:

-"هل تعرف ما هذا الشيء؟".

قال نديم:

-"منذ عامين تعثرت في مخطوطة تتحدث عن جنس معمر، في أحدى المكتبات القديمة بهولندا، حيث كانت تتكلم عن جنس يستطيع تجريد الأشخاص من قلوبهم لكي يسيطروا عليهم، مع قدرتهم على جعل القلب ينبض، لكن خارج صدر صاحبه! انتزع قلب إنسان تسيطر عليه كما تريد، ويبدو أنهم فعلوا هذا ببراعة!".

قلت بدهشة:

-"ولماذا يفعلون هذا؟".

هز كتفيه:

-"رغبتهم في السيطرة والعبث بحيوات البشر فحسب".

رمقته بشك:

-"كل هذا تسنى لك معرفته من الكتب؟".

ابتسم:

-"يمكنكِ أن تأخذي من الكتب الكثير، بل أكثر مما تتخيلي".

سألته:

-"لكن ما علاقة سامح به؟".

تطوع سامح للإجابة بعصبية، وكأنه ضجر من كل هذا:

-"كنت عائدًا ذات يوم للمنزل عندما شعرتُ به يهمس لي. يقترب مني ويطلب مني رعايته. بدا ككائن مخلوق تعس يطلب حناني، وشيئًا فشيئًا أحببت هذا المخلوق، واعتبرته بمثابة ابني! كنتُ آخذه معي في صندوق الغداء، الذي كان يلتهمه هو".

قلت باستنكار:

-"ابنك؟".

إنه يذكرني بشكل أو بآخر بما يفتقده!

قلت وقلبي يرتجف:

-"هذا يفسر تغيّرك معي؟".

قال بشراسة:

-"اخرسي ولا تتحدثي!".

تفجر الغضب في أعماقي وطفا على وجههي. الوضيع!

حديثي يستفزه؟ حسنًا، فلأواصل. أشرت للوحش:

-"إذن فهذا هو السبب في تغيّرك. لم تكن هناك أخرى إذن؟ لكن كيف قمت بخيـ...؟".

واختنقت الكلمات في حنجرتي وأنا أشير لياسمين التي تطلعت إليَّ متساءلة.

قال نديم موجهًا حديثه لسامح:

-"هو من أمرك بأن تشق صدر المدير وتحصل على قلبه؟ أليس كذلك؟".

زاغت عينا سامح وهو يهمس:

-"لم أكن قاتلًا لأفعل هذا... أنا...".

ثم تجمدت عيناه ثم وجهه!

كشف نديم عن صدره، وقال بأسى حقيقي:

-"يا لك من أحمق! لم تعرف أنه حصل على قلبك أيضًا!".

هنا انتفضت ياسمين، وقالت بعصبية مباغتة:

-"فذلك الوغد هو من تسبب في تغيّر حبه لي؟".

ولأنها الأقرب للوحش حيث يواصل تأملنا، غالبت اشمئزازها، وكانت غضبتها عارمة، وهي تهوي عليه بماكينة صنع القهوة القريبة منها، ودوت صرخة رفيعة من الكائن وهو ينتفض بألم ثم هدأت حركته. كان هذا في ثوانٍ معدودة. بينما امتقع وجه نديم وهو يهتف:

-"ماذا فعلتِ أيتها الحمقاء؟".

-"إنه يستحق... إنه السبب في...".

قاطعها نديم وهو يشير لبعض الحاضرين وهم يرتجفون:

-"وأنت السبب في مقتلهم، لقد كان هذا الكائن هو السبب في أنهم أحياء، وإن كانوا يسيرون غائبين عن الوعي!".

سقط سامح ومعه خمسة موظفين وهم يتلوون على الأرض كالدود!

قلتُ برعب:

-"ماذا سنفعل؟".

قال نديم وهو يهرع إلى حجرة مكتب سامح:

-"إني أشك في شيء ما".

هرعتُ خلفه، بينما مجدي يحاول الاعتناء بالموظفين الذين يرتجفون، دون أن يعرف ما المفترض أن يفعله بالضبط!

دخل نديم إلى مكتب سامح، ووثب إلى الخزانة التي توجد بالقرب من كرسيه، وهناك كان صف من القلوب المتراصة والتي يسيل منها الدم وهي تنبض بحركة ضعيفة نوعًا!

أشار نديم إلى صينية المشروبات الخالية:

-"ناوليني إياها".

أمسكتها بسرعة وأعطيتها له؛ فنقل القلوب عليها بحرص بالغ، وغادر المكتب واتجه للموظفين، وصرخ فيهم:

-"أريدكم أن تحملوهم الآن وتتبعوني".

قاموا بتنفيذ أمره، بينما هو اقترب من مكتب المدير الأقرب إليه، والتفت نحوي:

-"أخرجي المفتاح".

لوهلة كدت أسأله عن أي مفتاح يقصد، ثم فهمت قصده فأخرجته فورًا، وناولته إياه، فدفعه في ثقب الباب، وولج من خلاله وهو يصرخ:

-"هيا ادخلوا".

دخلنا الباب ثم توقفنا بدهشة ونحن ندير أنظارنا في المكان حولنا.

لقد كنا بداخل مكان مختلف: قاعة طبية متكاملة، بطاولاتها العديدة، وأجهزة الكمبيوتر المزودة بشاشات المتابعة، وكان هناك جرّاح آلي يقف في الركن بصمت، بدا هذا واضحًا من مجساته وأذرعه الميكانيكية

وهنا تكلم نديم وقال بسرعة:

-"نرجو من أصحاب هذا المكان أن يعالجوا هؤلاء المساكين، فقد...".

وشرع نديم يحكي ما حدث منذ وطأنا أرض الشركة، ثم عندما انتهي ساد صمت عجيب ونحن ننتظر ما سيحدث، هذا إذا كان سيحدث شيء أصلًا!

وطلب نديم من الموظفين أن يضعوا الأشخاص منزوعي القلوب على المناضد الخالية.

وفجأة تحرك الجرّاح الآلي، وأمامنا رأينا أكبر عملية نقل قلوب رأيناها في حياتنا!

أكثر من ثلاثين ذراعًا ميكانيكية راحت تتحرك بدقة وهي تنقل القلوب إلى الصدور المفتوحة، وتقوم بوصل الأوردة والشرايين بحذر وسرعة بالغتين.

قال مجدي وهو يتلفت حوله ويكاد يسقط فاقدًا لوعيه:

-"أين نحن بالضبط؟".

قال نديم بلهجة آمرة:

-"أرجو أن تحتفظوا بأسئلتكم بداخلكم؛ فليس هذا وقتها يا رفاق. فلننقذ هؤلاء المساكين أولًا".

مال نديم نحوي وقال:

-"أعرف أنكِ تتساءلين كيف عرفت بأني لو دسست المفتاح في أقرب ثقب سيقودنا لهذه المستشفى! حسنًا، هذا ما هو مكتوب باللاتينية على المفتاح: حين ينتهي الأمر فتحرك نحو أقرب باب، تجد العلاج!".

رمقته بصمت مندهش. هل هو صادق معي؟ بينما كانت تجري العمليات بسرعة ومهارة انزويت في ركن بعيد وأنا غارقة في أفكاري.

لم يكن سامح كاذبًا إذن عندما قال بأنه لا يشعر بأنه من خانني، وكأنه شخص آخر!

هل الوحش من دفعه لفعل ذلك؟

أم كان حبه لي هو ما جعله يتغلب على الوحش وتأثيره، برغم أنه فقد قلبه حرفيًا؟!

انتهت العملية بنجاح بعد خمس ساعات، ورقد الموظفون بما فيهم سامح، وقد توردت وجوههم بحمرة الحياة، وأنا أنهنه بصمت، وكأن كل انفعالاتي احتشدت وتجمعت ثم انفجرت في تلك اللحظة!

لكن أكثر ما جعلني أبكي أني اكتشفت أن الأمر ليس مجرد خيانة منفردة أو متكررة، بل الأمر أعمق من ذلك.

سامح واقع في غرام ياسمين، أو على الأقل هي واقعة في غرامه، وهو ترك لها الحبل على الغارب دون أن يوقفها عند حدها.

ربما كان هذا سبب تودده إليَّ مؤخرًا وإعلان ندمه!

لقد أفلتت منها الحقيقة حين قالت: *فذلك الوغد هو من تسبب في تغيّر حبه لي؟".*

قال نديم برفق وهو يتأمل دموعي:

-"انتظري هنا".

وأعطى تعليماته لمجدي ومن معه بأن يخرجوا بالموظفين الغائبين عن الوعي إلى الشركة مرة أخرى، من الباب الذي دلفنا عبره، حيث كانت الصالة الرئيسية بالشركة تبدو واضحة من الباب المفتوح.

غادروا وآخرهم نديم، والذي كان يهمّ بأن يضع قدميه بالخارج، لكن الباب انغلق فجأة، ثم انفتح بغتة لتطل من وراءه المكتبة العامة!

قال نديم متمتمًا:

-"انتهى الخطر إذن!".

قلتُ:

-"سيتحدثون عما حدث".

قال:

-"لن يحدث. سينسون كل شيء. بمعنى أدق سينسون كل ما هو متعلق بالخطر. سيتكفل المفتاح بخلق ذاكرة مزيفة في عقولهم متوافقة مع الواقع، بل وسيقوم بمحو كل أثر مادي يدل على ما حدث".

رمقته بدهشة فقال مرتبكًا:

-"هذا ما هو مكتوب على الوجه الثاني من المفتاح!".

-"لن يتذكر سامح زيارتي له إذن!".

-"لن يتذكر".

وناولني المفتاح، فأخذته منه برهبة، ونظرت إليه وإذا به بدون نقوش!

تطلعت إلى نديم فقال رافعًا يده:

"لا تسأليني! لقد اختفت النقوش، ربما لأن الهدف المكتوبة من أجله قد انقضى".

تأججتْ كتلة من الشك بداخلي ناحيته، ونحن ندلف عبر الباب المفتوح للمكتبة، وبدا أن أحدًا لم ينتبه إلينا بالمرة!

وكان آخر خاطر يثب لذهني حين غادرت المكتبة وتوجهت إلى منزلي، أني حين رأيت سامح يخونني أن جسده كان بلا أثار على جسده، تدل على القلب الذي أُنتزع منه، وبالتالي لن أعرف إن كانت خيانته لي بسبب فقده لقلبه أم لأن قلبه قد عاد إليه!

***

نهاية المغامرة الأولى

***

لمتابعة بقية كتيبات هذه السلسلة المجانية،

وسلاسل أخرى جديدة إن شاء الله، يُرجى متابعتي على:

قناتي على تيليجرام: الرابط

أخبرني برأيك في الكتيب على جودريدز: هنا

بريدي الإلكتروني

Aref.fikry@gmail.com